
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

معركة جبل بوگافر
حسب إفادات محلية معاصرة

محمد بوكبوط

من المعلوم أن موضوع المقاومات التي أبداها المغاربة أمام الاستعمارين الفرنسي والإسباني لا تزال ضمن الميادين الرئيسية التي يهتم بها التأريخ والمؤرخون المغاربة. ولا عجب في ذلك إذ هو من صميم مهمة التاريخ ودوره في الحفاظ على الذاكرة الوطنية وتأجيج روح الاعتزاز والثقة في نفوس الأجيال.

وبديهي أيضا أن هناك حقيقة لا جدال فيها. وهي ارتباط المقاومة بالجبال موضوع هذه الندوة. غير أن بعض المقاومات حظيت باهتمام الباحثين ولا تزال إلى حد حجبت معه غيرها من المقاومات التي بقيت مهمشة من طرف البحث الأكاديمي ورهينة المناسبات تذكرنا بها بعض الإشارات في الجرائد الوطنية عند حلول ذكراها.

من هذه المقاومات العنيفة التي لم يعن بها المؤرخون المغاربة كثيرا مقاومة قبائل آيت عطا بجبال صاغرو التي تعتبر آخر مقاومة لعملية التهدئة. وتروم هذه المساهمة بالأساس اغتنام فرصة انعقاد هذه الندوة لتقديم مخطوط صغير يورد رواية فقيه من آيت عط لأحداث معركة بوگافر التي دارت في فبراير 1933، دون اذعاء تحليل معمق للمخطوط أو تغطية وافية للأحدث التي أوردها.

وقبل الخوض فيما جاء به هذا المخطوط الطريف، لا يفوتني أن أنوه وأشكر الأستاذ عبد الله استيتو - أحد طلبتنا المتخرجين من كلية الآداب بتطوان- الذي يرجع له الفضل في اكتشاف هذا المخطوط عند حفيد كاتبه بألنيف، فتفضل بتسليمه لنا لإخراجه إلى النور والاستفادة منه.

كاتب المخطوط كما جاء في صفحة كتبت بخط مغاير لخط المؤلف هو «فضيلة الشيخ والعالم والعلامة السيد الطالب لحسن بن احماد بن لحسن بن موحى العزاوي ثم العطاوي ثم البوريكي. المزداد بألنيف سنة 1885 الموافق 1305 هـ». وواضح من نسبه أنه ينتمي لقبيلة آيت إيعَزًّا المكونة لأحد أخماس الحادية آيت عطا، والمستقرة بمنطقة ألنيف ومصيصي على واد الرگ شرقي وجنوبي جبل بوگافر. وكان عمره عند

اندلاع معارك صاغرو ثمانا وأربعين سنة. كما أن إلمامه بالقراءة والكتابة وحفظه للقرآن، وبالتالي كونه طالبا (فقيها) هو الذي سمح بوصول هذه الصفحات إلينا، والتي -حسب علمنا- تعتبر من النصوص المكتوبة النادرة التي تورد رواية محلية عن أحداث المقاومة في جبل صاغرو.

يبدأ الطالب لحسن مخطوطه بقوله: «هذه قصة غزوة سغروا (كذا) رضي الله على المسلمين أجمعين، وبعد، هذه النسخة المباركة من الوقوع الذي جرى بين المسلمين والكافرين في هجرة وغزوة سغروا، أي الهجرة التي هاجروا هذه النواحي القريبة تفلالت ... وتدغة إلى ءاخر البلدان»(1).

يستهل إذن رواية الأحداث بالهجرة المكثفة لقبائل آيت عطا التي داهمت مضاربها القوات الفرنسية، سواء في منطقة ورززات وزاگورة، أو منطقة تافيلالت والمناطق الصحراوية الحدودية، ويشير هنا بالخصوص إلى أحداث أواخر سنة 1932 وبداية سنة 1933. حيث نجح الفرنسيون في السيطرة على واحة تافيلالت التي فشلوا في إخضاعها بسبب مقاومة آيت عطا بقيادة مبارك بن الحسين وبلقاسم النكاري في نهاية العقد الثاني وطوال العقد الثالث من القرن العشرين (1918 - 1919 وخلال حرب الريف).

وانطلاقا من نقاط تمركزهم بتافيلالت، بالخصوص أرفود والريصاني أخذ الفرنسيون في توسيع "بقعة الزيت" على حساب آيت عطا، سواء في تجاه الجنوب أو الشرق أو الغرب. ومعروف أن المناطق المحيطة مباشرة بواحة تافيلالت أغلبها منبسطة وسهلة الاقتحام، مما يفسر سهولة التوسع الفرنسي فيها وعدم اصطدامه بمقاومة صلبة، اللهم بعض الغارات المباغتة على الوحدات الغازية والمراكز الفرنسية المتقدمة. وهذا العامل هو الذي جعل آيت عطا ينسحبون من مضاربهم «حتى اجتمعوا في أگنات(2) وسغروا ونواحيهم في الجبال والأوطان وجلسوا ما شاء الله واجتمعوا كلهم في

(1) الطالب لحسن بن احماد، مخطوط قصة غزوة ساغروا، ص. 1 .
(2) المخطوط ، ص . 1 .

سغروا »[1].

ابتداء من اللحظة التي اجتمع فيها آيت عطا بصاغرو، بدأت أهمية وخطورة هذه الكتلة الجبلية تزداد بالنسبة للفرنسيين. فإستراتيجيا، تطل كتلة صاغرو الصخرية على واحات وأودية المنطقة، كما تتحكم في الطرق الرابطة بين تافيلالت ودرعة ومنافذ الأطلس الكبير، أما سياسيا وعسكريا، فقد أصبحت بؤرة وملجأ للرافضين للسيطرة الاستعمارية والعازمين على مواجهتها بالسلاح.

وفي هذا الصدد قال بورنازيل: «لقد حتمت علينا الظروف إعطاء الأسبقية لجبل صاغرو، الذي يتحكم بضخامته المرتفعة في جميع ممتلكاتنا بالجنوب، ويمثل بالنسبة لنا خطرا مباشرا، إنه امتداد للأطلس ويضم مجموعة من الواحات التي تشكل مكانا لتجمع المقاومين الذين يغارون بين الفينة والأخرى على قوافلنا وعلى أتباعنا »[2].

كل ذلك جعل الفرنسيين يحشدون قواتهم ويبادرون إلى إخضاع آيت عطا، وعن ذلك يقول الطالب لحسن: «والنصارى قد جاءوا إليهم بحروكه وجنوده (كذا) كالجراد المنتشر حتى وصلوا بلاد ألنيف وبنوا فيه وقدموا إلى بلدية احصية وبنوا فيه ورجعوا بجنوده وحروكه (كذ) حتى لم يتركوا إلا قليلا في ذلك البنيان... وقعدوا ما شاء الله ورجعوا بحروكه وجنوده وعساكره أكثر من أول مرة وقصدوا بلد سغروا، واجتمعوا بجنوده في كل مكان الذي حكموا (كذا) لا يُعد ولا يحصي عددهم إلا الله»[3]، كان ذلك في 12 فبراير 1933، التاريخ المحدد للهجوم على صاغرو، ويضيف صاحب المخطوط واصفا ذلك الهجوم «وطلعوا (الفرنسيون) إلى الجبل سغروا في كل جبهة (كذا) وأدروا عليه (كذا) حتى لم يجدوا (كذا) المسلمين أين ما يخرجون ولا يلتفتون إليه ويضربوهم بالبرود والأنفاط والقرطاس والطيايير والمهابلة[4] حتى لم يستمعوا

(1) المخطوط، ص 1 .

(2) Jean d'Esme, Bournazel, l'homme rouge, Flammarion, Paris, 1952, p. 230.

(3) المخطوط ، ص.ص. 1 - 2 .

(4) ج. مهبولة وتطلق على الرشاشة.

أحد لأحداً (كذا) بجهد الأغوات[1] والبرود. وغنموا فيه المسلمين في يوم الأول جهد من بغال وقش[2] وزرع وماتوا فيه شيء من قليل وفي المسلمين كذلك»[3].

تتطابق هذه الرواية مع تقارير الفرنسيين وكتابات المشاركين منهم في المعارك الأولى. إذ منيت الفيالق الفرنسية المهاجمة بخسائر فادحة. وفي ذات الوقت كان المقاومون ينسحبون من مراكزهم المتفرقة في جبال صاغرو للتحصن في جبل بوگافر «حتى لم يبق شيء في المسلمين في الأوطان»[4].

وهناك ستدرو وقائع ملحمة من أروع ملامح تاريخ المغاربة بشهادة أعدائهم، ولا زال بوگافر شاهدا على ذلك، هذا الجبل الشامخ التي يتوسط كتلة صاغرو، والتي يصفها بورنازيل في رسالة لوالدته بتاريخ 8 فبراير 1933، أي قبيل الهجوم بأيام قليلة، بأنها «جبل يتراوح علو قممه بين 2000 و 2300 متر. ويشبه شكل هذا الجبل المكون من صخور بركانية سوداء قنفذا غير مستوي الأشواك، وتتخلله خوانق ذات سفوح عالية وشديدة الانحدار، ضيقة وملتوية وصخرية، وهناك قليل من الماء أو ينعدم. يقال إن العدو ينوي الصمود فيه ... ولكن يقال الكثير ....»[5]. هذه التضاريس الشديدة الوعورة التي تميز صاغرو أفردت لجبل بوگافر مزيدا من المميزات من حيث صعوبة وتعقيد تكوينه، بحيث يبدو ضمن هذه الكتلة بمثابة قلعة محصنة طبيعيا بجدرانه الصخرية العمودية، ومسلاته وشقوقه وصخوره التي وفرت ملجأ مدرعا للمجاهدين العطاويين.

على هذه الصخور الصلبة، وصخرة الاستماتة في الصمود من طرف آيت عطا، تكسرت هجمات الفرنسيين بقواتهم المختلفة وأسلحتهم المتطورة، حيث انتهت هجومات

---

(1) الأغوات : كلمة دارجة كذلك يقصد بها الأصوات المرتفعة والدوي والصراخ.
(2) القش : كلمة تطلق على مجموع الأواني والحاجيات المختلفة.
(3) المخطوط ، ص . 2 .
(4) نفسه .
(5) H. Bordeaux, Capitaine de BOURNAZEL, Hachette, Paris, 1935, p.p. 210 - 211.

14 و 21 و 23 فبراير 1933 بخسائر فادحة في صفوف جيش الغزاة دون التمكن من السيطرة على أي موقع ذي بال في جبل بوگافر. ولنترك مرة أخرى الطالب لحسن يصف هذه المعارك بأسلوبه المفعم بالبساطة والصدق حيث يقول : «وأما النصارى جاءوا إليهم في ذلك الجبال وضربوا حتى ماتوا النصارى وجنودهم بكذا وكذا من المائة، والمسلمين نصرهم الله كانوا فيهم رجال يضربون ولا يخطئون أبدا .... وفعلوا فيهم المسلمون في النصارى كما فعلوا الصحابة في الجهال زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقتلوهم قتلا عظيما، وقدموا إليهم وضربوا وزعموا[1] النصارى إلى المسلمين أي رفدوا إليهم عوام بلغة أهل الوقت[2] والمسلمين يضربونهم حتى قتلوا في النصارى كذا وكذا من نفس بين الفسيانة وقبطان وآكنانيرة[3] وكبار حكامه وسرجانة وغير ذلك من گوم[4] وعساكر ومع الذين حركوا معهم يسمون برطيزة[5] بلغة أهل الوقت، وأما الذي مات في لاجوا[6] لا يحصي عدده إلا الله»[7]. أمام استماتة آيت عطا وصدهم لكل محاولات تسلق جبل بوگافر، بدأ الفرنسيون في التحضير للهجوم الشامل كما سماه ضباطهم، ويورد المخطوط ذلك بقول الطالب لحسن «والحاصل من ذلك النهار خافوا النصارى وخلعوا[8] ولم يزيدوا[9] إليهم سوى بكثرة الأنفاط والطيايير وجهد[10] القرطاس. هذا الذي يضربوا بهم لم يقدروا أن يزعموا إلى المسلمين رضي الله عنهم، وجلسوا في ذلك الجبال بگافر بكثرة التعب وقلة الماء والجوع أخذهم ... والنصارى

(1) زعموا، دارجة، تعني أقدموا عليهم.
(2) دارجة كذلك، تعني الهجوم الشامل.
(3) ألقاب الضباط حسب درجاتهم.
(4) گوم. فيالق مكونة من مغاربة كانوا يخدمون في الجيش الفرنسي Goumiers.
(5) برطيزة : أيضا فياليق من المغربة المتعاونين مع الفرنسيين Partisans.
(6) لاجوا . يقصد اللفيف الأجنبي La Légion.
(7) المخطوط ، ص.ص. 2 - 3 .
(8) دارجة : خافوا.
(9) لم يتقدموا.
(10) كلمة دارجة تستعمل في الأمازيغية، وتعني كثيرا.

متصلة المؤونة منه من البحر إلى تلك الجبال يرفدونها بالطموبلات لا يعد ولا يحصي عددها إلا الله. والمسلمين كانوا فيهم الرجال الذين بقوا بلا عشاء ولا غذاء وكان يضرب العدو لعنه الله أفضل عنده من الأكل والشراب ... حتى تعجب النصارى ... في تلك الغزوة وصوروها بتصويراتهم إلى بلد فرنساة»[1].

تقرر الهجوم الشامل بقيادة الجنرال هوري يوم 28 فبراير، ولكنه اصطدم بمقاومة أشد، وكانت النتيجة تكبيد القوات الاستعمارية خسائر جسيمة، إذ سقط عدد كبير من الضباط، وأشهرهم القبطان بورنازيل الذي يقول فيه الطالب لحسن في معرض وصفه لذلك الهجوم: «وكان فيهم كافر تغلظ لنفسه وتعجب في فعله لعنه الله وكان يقال له برنانيز ... وهو يسبق جنوده كلهم ولم يخاف يموت (كذا). وأما المجاهدين رضي الله عنهم تعرضوا له في تلك الطريقة[2] التي يطلع فيها للجبل بگافر، وها هو قدم إليهم وسبق جنوده ويقول لهم زيدوا ولا تتأخروا، وضربوه المجاهدين وقتلوه ... وولوا جنوده وجيوشه مدبرين ومذلين... وحيث مات لهم ذلك الكافر ... دهشو جيوش الكفار لعنهم الله. ومن بعد ذلك الذي مات فيه لا يزعمون ولا يقدمون إلى قدامهم للقتال»[3].

بالفعل عول الفرنسيون على الحصار والتآمر وارتكاب المجازر لتثبيط عزيمة آيت عطا، بحيث «قعدوا البرود في تلك الجبال بگافر منذ خمسة وأربعون يوما ... وكانوا المسلمين ... قضوا لهم المئونة ومات البعض... والذين بقوا جرحوا ولا يحصي عدد الموتى فيهم إلا الله حتى ماتوا فيهم جهد من النساء والصبيان كذا وكذا بلا رجال الأكابر وهم باقون باقيا ضيقا حتى لم يعرفوا أحد فيهم أحدا بكثرة الغبرة من ضربة الطيارات والأنفاط»[4]. «والأرض يضرب والسماء كذلك تضرب مثله كمثل المطر إذا كان ينزل بالكثرة، ودخان الأنفاط والطيارات على المسلمين كمثل الأغيام الأسود»[5]

(1) المخطوط، ص.ص. 3 - 4.
(2) يقصد الطريق أو السبيل.
(3) المخطوط ص.ص. 15 - 16.
(4) نفسه. ص. 4.
(5) نفسه ن. ص.

ولم يفت الفرنسيين استغلال محنة المقاومين لإرسال وسطاء لوضع حد للعمليات الحربية واستسلام آيت عطا، وهنا نجد تكذيبا لادعاء الكتاب الاستعماريين بقيام المقاومين بتصفية رسل الفرنسيين إليهم، إذ يقول الطالب لحسن : «وزادوا أرسلوا إليهم برطيزة الذين كانوا معهم وقالوا لهم نقبضوا لكم الأمان التام ترجعوا، وقالوا لهم المسلمون ... ولو كنتم تقدمون من غير الأمان التام نقتلوكم حتى أنتم ولا كن الله أمرنا بالعهد، ورجع البرطيزة وهم يخبرون الحكام النصارى»[1].

إلى جانب البطولات التي أوردها المخطوط، لم يغفل التنويه بدور المرأة العطاوية في ملحمة بوگافر، وفي ذلك يقول: «وكذلك النساء التي حضرن في تلك الغزوة وأنهن فعلن كما أفعال الرجال في يوم القتال رضي الله عنهن، وأنهم ينبهن الرجال في يوم القتال ليقولن لهم كونوا الرجال»[2].

وهذه شهادة الأعداء في حق نساء آيت عطا، أوردها الطبيب الماجور ڤيال كشاهد عيان لمعارك بوگافر: «كانت نساؤهم تسهرن على تجميع المنعزلين وتوزعن الذخائر، كما كن يأخذن مكان المصابين ويدحرجن على المهاجمين صخورا ضخمة تزرع الموت حتى قعر الوادي»[3].

كما أورد المخطوط معلومات عن أعداد القوات المتحاربة في بوگافر إذ يقول: «والله أعلم بتلك الغزوة المباركة المذكورة. فقد حضروا فيها أهل الله بغير شك ولا ريب، وأن علامتها كانوا المسلمين بشيء من قليل مقدار سبعمائة رجل وقيل ثمان مائة والكفار لعنهم الله كانوا بكذا وكذا من الالف، أكثر من سبعين ألفا»[4]. وبالطبع لم يكن يعلم عدد الطائرات التي بلغت أربعا وأربعين، وبطاريات المدفعية والرشاشات، أي أحدث أنواع الأسلحة التي كانت لدى فرنسا فيما بين الحربين العالميتين.

والحقيقة أن أفتك سلاح قهر المقاومين هو الحصار والتيئيس وتدمير المعنويات

---

(1) نفسه، ص. 4

(2) نفسه ص.ص. 8 - 9 .

(3) H. Bordeaux, op. cit. p. 246 ....

(4) المخطوط ، ص . 14 .

بالقصف العشوائي الذي أودى بحياة الأطفال والشيوخ والمواشي، مما جعل موقف الصامدين جد صعب رغم إصرار المتشددين على ضرورة مواصلة الكفاح، إذ «كانوا المسلمين مخصوصين بالمئونة وقلة المسارخة من الجنود حتى عايَواْ[1] ورجعوا، ولكن قد سئلوا (كذا) علماءهم حتى أجازوا لهم الرجوع بقلة المئونة والمسارخة، وذهب الأمير ونزلوا المسلمين»[2].

ومما يثير التساؤل هو عدم ذكر زعيم المقاومين بالاسم، واقتصار صاحب المخطوط على ذكر لقبه (الأمير) مرة واحدة عند إيراد استسلام آيت عطا، ولعل ذلك يجعلنا بدورنا نعيد النظر شيئا ما في تناولنا للمقاومات المغربية، والمتميز بطغيان التفسير البطولي للتاريخ، إذ تقترن عندنا مقاومة الريف بأن عبد الكريم، ومقاومة الأطلس المتوسط بموحى وحمو، ومقاومة صاغرو بعسو وباسلام.

ولا شك أن هذا التناول أو هذا المنظور -ودون أن نبخس هؤلاء الرجال حقهم- فيه ما فيه من إغفال لأدوار البسطاء من أبناء القبائل، أولئك الجنود المجهولون، الذين لا يزال بعضهم إحياء يرزقون. ولا يرون من مؤرخي ملاحمهم ما نجده في مخطوط الطالب لحسن، المفعم بالدعاء للمجاهدين والإعجاب ببطولاتهم.

هكذا كان جبل بوگافر مسرحا لهذه الملحمة التي كانت ذروة مقاومة آيت عطا للغزو الفرنسي، تلك المقاومة التي بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر مع التوسع الاستعماري في التخوم الصحراوية، حيث واجه آيت خباش الفرنسيين في تين ميمون وتندوف، لتستمر المقاومة إلى بوگافر، حيث استسلم أغلب المقاومين بزعامة عسو وباسلام. ورغم تجريد آيت عطا من السلاح، فأن بعض قبائلهم المتشددة لم تستسغ الاستسلام، وخاصة آيت خباش الذين نزحوا من منطقة تافلالت وصاغرو في مسيرة انتهت بهم إلى المحيط الأطلسي، حيث حوصروا هناك من طرف الفرنسيين والإسبان، وتلك صفحة أخرى لا تزال غامضة في سجل آيت عطا الكفاحي.

---

(1) دارجة تعني تعبوا.

(2) المخطوط، ص . ص. 5 - 6 .